الفصل الثالث

رب المختبر

التصميم الذكي والحرب على التنوير

ليس بإمكان التضليل الإعلامي الشمولي أن يهين الحس السليم، على نحو سافر، إلا إذا فقد الحس السليم صحته.

ـ حنّة آريندت، أصول الأنظمة الاستبدادية

◆

كان الاجتماع الذي عقده مجلس المدرسة الثانوية اجتماعاً ربيعياً عادياً في بلدة دوفر الصغيرة بولاية بنسيلفينيا. كانت المدرسة بحاجة إلى كتب مدرسية لمادة الأحياء، وكان قسم العلوم في المدرسة قد أوصى باعتماد كتاب (الأحياء) واسع الانتشار، وهو من تأليف كل من كينيث ملر، وجوزيف ليفاين. إلا أن السيد بل بكنغهام العضو الجديد في مجلس المدرسة - الذي تبوأ عن قريب رئاسة مجلس لجنة المناهج - أبدى اعتراضه على هذه التوصية قائلاً: إن كتاب الأحياء «ينضح بالداروينية»، وإنه يريد كتاباً يوازي بين نظريات التطور ونظرية الخلق المسيحية. وكان بكنغهام على استعداد لتحويل بلدته الصغيرة إلى ساحة معركة ثقافية في سبيل تحقيق مبتغاه.

وقال بكنغهام، ذو الجسم الممتلئ، والشعر الأشيب الذي يضع صليباً ملوناً بالأحمر والأبيض والأزرق على طية صدر معطفه: «إن هذا البلد لم يتأسس على مبادئ الإسلام، ولا على نظرية النشوء والارتقاء، لقد تأسس هذا البلد على المبادئ المسيحية، وينبغي أن يدرّس أبناؤنا وفق تلك المبادئ»[62].

أثارت تصريحات بكنغهام هذه استهجان كارول براون، وهي عضو في مجلس المدرسة، تبلغ من العمر 75 عاماً، وتصف نفسها بأنها من أنصار اتجاه غولد ووتر في الحزب الجمهوري. ويشاطرها هذا الاستهجان زوجها جف (جفرسون) براون، وهو

الآخر عضـو في مجلس المدرسة. وأضافت كارول: «حين سمعت تلك التصريحات كنت أتخيل العناوين الرئيسة في الصحافة تتحدث عن هذه القضية». وقد حدث ذلك فعلاً كما كانت تتصور.

ومع انتهاء عام 2004، توافد الصـحافيون والمراسـلون من الولايات المتحدة، ومن العالم على البلدة الصـغيرة التي تسـكنها عائلة براون في ولاية بنسيلفينيا، لنقل آخر التقارير اسـتئناف التلاحم في الحرب الأمريكية المزمنة على نظرية التطور. غير أن بكنغهام نجح قبل ذلك في جعل مدينة دوفر أول مدرسة حكومية في الولايات المتحدة، تقدم لطلابها نظرية (التصميم الذكي)؛ وهي نسخة معدلة عن فكرة الخلق. وبذلك فتـح بكنغهـام المجال أمام معركة قانونية على يد أوليـاء الأمور من الاتحاد الأمريكي للحريـات المدنيـة. وهو ما يهـدِّد بزجِّ البلاد في أزمة مشـابهة للأزمة التي صـاحبت محاكمة سكوبس، التي تعرف بمحاكمات القرد.

كانـت قضـية دوفر جزءاً من ثورة متمردة ضـد نظرية تطور الأحيـاء، وقد بدأت تكتسـب زخماً في الولايات المتحدة في أثناء الأعوام القليلة الماضية، وهي عَرَض يشبه الحمى الدينية التي ساعدت في وضع جورج بوش في البيت الأبيض. ومنذ عام 2001، خاضـ المركز الوطني للتعليم العلمي – وهو مجموعة تكونت للدفاع عن نظرية التطور – عـدة معارك قانونية في المحاكم الأمريكية عن داروين، في 43 ولاية. ومع حلول عام 2005 ازدادت وتيرة هذه المنازعات على نحو ملحوظ.

ومع تطوير نظرية (التصـميم الذكي)، اكتسـب أعداء داروين مهارات جديدة. فهم الآن يجادلون بأن التطور ليس مسـتحيلاً من المنظور الديني وحسـب، بل ومن المنظور العملي كذلك. فكيمياء الأحياء والرياضيات – كما يزعمون – قد أظهرت أن هيكل البروتين والأحماض الأمينية في الخلية التي تشكل اللبنة الأساسية في الحياة، هي من التعقيد والدقة بمكان، بحيث يصـعب التسـليم بأن تصـميمها جاء من أي شـيء آخر سـوى القوة الخارقة. وفي النهاية، فإن أنصـار الخلق والتصميم الذكي

لا ينازعون عن معلومات تجريبية. إن ما يحدث في الولايات وفي المدارس في أرجاء البلاد كافة هو صراع على طبيعية (الحقيقة). والسؤال هو: هل يمكن تحصيل العلم والمعرفة دون القول: إن (الرب) هو الخالق؟. وهل يُسمح للتعليم العلمي أن يناقض النظرة المسيحية للعالم والوجود؟. وقد جاءت إجابات معظم الشرائح السكانية في الولايات المتحدة بالنفي.

وفي الشهر الأول الذي تم فيه إعادة انتخاب جورج بوش، قامت مدرسة غرانتسبيرغ الريفية في ولاية ويسكانسن بمراجعة مناهجها الدراسية المتعلقة بالخلق والتصميم الذكي. وبعد احتجاج المجتمع المحلي - بما في ذلك عريضة احتجاجية وقَّع عليها مئتان من رجال الدين - قامت المدرسة بمراجعة سياستها، إلا أنها استمرت في إلزام الطلاب بدراسة (نقاط القوة والضعف العلمية في نظرية التطور)، وهي خدعة يستخدمها المؤمنون بالخلق لبث انطباع بوجود جدل علمي عن التطور.

ومن المبادرات الأخرى المناهضة للتطور - تلك التي أثرت على بقية الولايات - استحواذ أنصار (القول بالخلق) على مجلس التعليم في ولاية كانزاس في الانتخابات الأخيرة. وكانت المرة الأخيرة التي حصلوا فيها على الأغلبية في المجلس عام 1999، وصوّتوا بالموافقة على قرار يقضي بحذف أي ذكر للتطور في المناهج الدراسية في الولاية. وتحولت الولاية على إثرها إلى أضحوكة للجميع، وكانت الهزيمة من نصيب أعداء (التطور) في الانتخابات التحضيرية للحزب الجمهوري، وهو ما أدى إلى إلغاء تلك السياسة والعودة إلى الوضع السابق. وبعد فوزهم الجديد عام 2004، لم يقف عزم أعداء نظرية التطور عند حد تدريس التصميم الذكي، بل أصبح يتعداه إلى تغيير التعريف الرسمي للعلم نفسه؛ بحيث يتضمن الإشارة إلى القوة فوق الطبيعية، إضافة إلى التفسيرات الطبيعية للظواهر الكونية.

وفي عام 2004، نشرت صحيفة نيويورك تايمز تقريراً جاء فيه أن أعضاء في المجلس التشريعي في ولاية ميزوري يعكفون على صياغة مشروع قانون يفرض على كتب الأحياء التي تدرس في مدارس الولاية أن تتضمن (نظريات بديلة عن التطور).

وشبهت عضو مجلس النواب سينثيا ديفيس في حديثها مع التايمز أنصار الداروينية بمنظمة القاعدة قائلة: «المسألة تشابه استيلاء الخاطفين على الطائرات الأربع صبيحة 11سبتمبر، واقتيادهم الركاب إلى وجهة لم يكونوا يقصدونها» وأضافت: «أعتقد أن كثيراً من الناس يشعرون بأن الليبراليين اقتادوا البلاد إلى وجهة لا يريدها الشعب، وأعتقد أن هناك أعداداً أكبر من الناس باتوا يدركون الآن أن هذه بلدنا، وأننا سنستعيدها منهم»[63].

ويعمل أنصار اليمين المتشدد في الكونغرس، وفي برامج المحادثة على الراديو، وفي برامج التلفاز المسائية، على إذكاء الثورة المعادية للنشوء والارتقاء؛ بادعائهم أن الحرية الأكاديمية تعني حرية تدريس نظرية الخلق. وبعد بروز قوتهم في الانتخابات، لم يعد لدى المحافظين أي استعداد للتنازل. فأمريكة دولة ديمقراطية، وهم الآن يتمتعون بالأغلبية. ولا يرون أي سبب يمنعهم من طرح مبادئ العلم على الشعب للتصويت عليها بالرفض أو القبول*.

وقد قررت بعض المدارس عدم تدريس التطور أبداً، وذلك رغبة منها في تفادي هذه الأزمة بالكامل**. كما عمدت بعض المتاحف العلمية إلى الابتعاد عن داروين، رافضة عرض أفلام آرامكس مثل فيلم (براكين أعماق البحار) التي تتعارض مع ما جاء في سفر التكوين من الكتاب المقدس، خشية إثارة احتجاج الزوار الأتقياء.

---

*والظاهر أن جورج بوش يوافق على هذا الرأي. ففي الأول من أغسطس من عام 2005، صرح الرئيس أمام مجموعة من الصحافيين من تكساس بأن على المدارس أن تعلم نظرية النشوء والارتقاء، إلى جانب نظرية التصميم الذكي. وكان بوش قد أعلن من قبل بأن «الحكم على صحة نظرية النشوء والارتقاء ما زال رهن المداولة».

** نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر في الأول من فبراير من عام 2005، ما نصه: «وفق رأي كثير من الباحثين المهتمين بهذه القضية، فإن نظرية النشوء والارتقاء وإن كانت في المناهج الدراسية، إلا أنها لم تكن تدرس في صفوف الدراسة في كثير من المقاطعات. وقد تتطابق أدلة المعلمين ومناهج مادة الأحياء مع معايير علماء الأحياء، إلا أن مديري المدارس يمكن أن ينصحوا المعلمين بعدم مناقشتها أو تدريسها. أو ربما يتجنب المعلمون أنفسهم هذه المسألة؛ خوفاً من التصادم مع الأصوليين في تلك المناطق».

إستراتيجية الإسفين:

لم تحصل أحدث المناوشات في الحرب الأمريكية في أصل الوجود على وجه عفوي. وربما بدأ أشخاص مثل بل بكنغهام حملاتهم الصليبية في بلداتهم الصغيرة بمبادرة فردية، وعلى نحو مستقل؛ بيد أن مركز العلوم والثقافة الذي يعد المركز الرئيس لحركة (التصميم الذكي) في مدينة سياتل في ولاية واشنطن، هو الذي مهد الطريق أمام هذه الحركة قبل عدة سنوات.

إن التصميم الذكي وريث علم الخلق. وهو محاولة لوضع قناع من الشرعية العلمية على الاعتراضات اللاهوتية الموجهة على نظرية التطور. ويستخدم أنصار التصميم الذكي لغة تبدو للسامع وكأنها لغة أكاديمية علمانية، ويهاجمون داروين بحجج تستند إلى تركيب الخلايا والاحتمالات الرياضية، التي يصعب على الشخص العادي استيعابها وتقديرها، ويصرون على أن تحديهم لنظرية التطور مدفوع بالحقيقة لا بالعقيدة. ويقول الموقع الإلكتروني التابع لمركز العلوم والثقافة: «لقد دفعت الأبحاث والاكتشافات العلمية في حقول علوم الفيزياء، والفضاء، والكيمياء الحيوية، والجينات، والحفريات القديمة، التي تمخضت في العقود الماضية، عدداً من العلماء إلى التشكيك في الداروينية الجديدة، وإلى القول: إن التصميم الذكي هو أفضل التفسيرات لوجود التعقيدات المحددة في العالم الطبيعي».

وفي حين يصف مركز الثقافة والعلوم نفسه بأنه منظمة علمانية، إلا أن الدافع المحرك وراء (التصميم الذكي) هو دافع ديني لا محالة، وهو ما يقره أنصار هذا المركز أمام مناصريهم المسيحيين، وينبثق عمل مركز العلوم والثقافة عن معهد ديسكفري، وهو معهد فكر يستمد بعض تمويله من حسابات استثمارية تعود لورثة هاورد أهمنسون؛ أبرز مناصري القومية المسيحية. وقد أمضى أهمنسون عشرين عاماً في مجلس جمعية آر. جي رشدوني المعروفة باسم مؤسسة كلسيدون؛ وهي مؤسسة تدعو إلى استبدال القانون الإنجيلي بالقانون الوضعي الأمريكي. ويذكر المركز على صفحات موقعه الإلكتروني ما نصه: «يفتقر التوجه الكلسيدوني إلى الجاذبية في المجتمع المسيحي المعاصر المتحرر عموماً، مثلما أنه لا يستهوي العقائد

التحررية نفسها»، ويضيف المركز: «إننا نخاطب في رسالتنا القديسين المخلصين الثابتين على عقيدتهم، الذين يعتقدون أنه إذا كان الإنجيل صالحاً للكنيسة فإنه أيضاً صالح للمدرسة والدولة؛ الذين يؤمنون بأن المسيح يسوع هو رب الأسرة، وهو أيضاً رب المختبر، ورب مجلس الإدارة؛ الذين يدركون أنه إذا كانت المسيحية خيراً لهم فإنها أيضاً خير لأبناء أحفادهم وأحفاد أحفادهم».

ويهدف مركز العلوم والثقافة كذلك - وعلى نحو أكثر غموضاً - إلى وضع (الرب) في مركز الحياة المدنية. وكان هذا المركز يسمى في الأصل (مركز التجديد العلمي والثقافي). ويتحدث المركز بخطابين مختلفين: واحد موجه نحو الجمهور العام، والآخر موجه نحو المؤمنين المخلصين. وفي خطابه إلى الفئة الأخيرة يكشف المركز بصراحة عن أهدافه الحقيقية الطموحة في تقويض التراث العلماني لحقبة التنوير، وإعادة بناء المجتمع على أسس دينية. وكما ذكر المركز في اقتراح لجمع التبرعات عام 1999 - الذي تسربت نسخة منه إلى الإنترنت فيما بعد - جاء فيه: «إن معهد مركز تجديد العلوم والثقافة لا يسعى إلى أقل من الإطاحة بالمذهب المادي وتراثه الثقافي». وبدأ هذا الاقتراح وعنوانه: «إستراتيجية الإسفين» بالقول:

> «إن الفكرة القائلة بأن الإنسان خلق على صورة (الرب) هي حجر الزاوية للمبادئ التي بنيت عليها الحضارة الغربية... ومع ذلك - وقبل أكثر من قرن من الزمان بقليل - تعرضت هذه الفكرة الجوهرية لهجوم عنيف ومستمر على يد مفكرين يستخدمون الاكتشافات العلمية الحديثة. وعمل مفكرون وفلاسفة من أمثال تشارلز داروين، وكارل ماركس وسيغموند فرويد على دحض المفاهيم التقليدية عن (الرب) والإنسان، وصوّروا بني البشر لا بوصفهم مخلوقات روحية تتحلى بالأخلاق، بل على أساس أنهم حيوانات أو آلات سكنت هذا العالم المحكوم بقوى تخضع في حركتها لقوى الأحياء والكيمياء والبيئة. واستشرى هذا المفهوم المادي للواقع في نهاية المطاف في كل جوانب ثقافتنا، من السياسة والاقتصاد إلى الآداب والفنون».

وكما تقترح (إستراتيجية الإسفين)، فإن كثيراً من أتباع مركز الثقافة والعلوم وأنصاره منزعجون من الآثار الفلسفية للتطور، أكثر من انزعاجهم من حقيقة أنها تناقض القراءة الحديثة للكتاب المقدس. ومعظم هؤلاء ـ وليس جميعهم ـ على درجة عالية من المعرفة والإصرار على أن عمر العالم قريب من ستة آلاف سنة. وهو الموقف الذي يتخذه معظم المؤمنين بفكرة الخلق. ويعمد أنصار مركز الثقافة والعلوم إلى هجر الخطاب المذهبي الديني في المناقشات العامة. فهم لا يريدون أن يربط الناس بينهم وبين الاضطهاد الذي حدث في العصور الوسطى لكوبر نكس وغاليليو. وبدلاً من ذلك، تجدهم يحاولون تقديم أنفسهم بوصفهم ورثة لهؤلاء العلماء المثاليين، والإصرار على أن سعيهم نحو الحقيقة بعقل مفتوح يحبطه العلمانيون المتعصبون باندفاعهم الأعمى لإنكار وجود الإله.

بل - أكثر من ذلك - إن معظم أنصار مركز الثقافة والعلوم يقبلون نظرية التطور ضمن الأنواع؛ وتقتصر معارضتهم - عموماً - على الفكرة القائلة: إن عملية التحول العشوائي والاختيار الطبيعي أفضت إلى تطور الخلية الحية من مستويات دنيا إلى أشكال متقدمة من الحياة. ومثل هذه العملية تبدو - في نظرهم - مناقضة للاعتقاد بأن الإنسان خلق على هيئة الرب، وأن (الرب) يولي هذا الإنسان معاملة خاصة.

هناك عدد ليس بالقليل من أنصار مركز الثقافة والعلوم يتمتعون بمؤهلات علمية رفيعة، ويحملون شهادات أكاديمية عليا من جامعات مرموقة، ويتقنون أساليب النقاش والمناظرة في المنتديات العامة ووسائل الإعلام الدارجة. ومن هؤلاء فيليب جونسون، وهو أحد الآباء المؤسسين في الحركة، وهو برتبة أستاذ في القانون في جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي، وجونثون ويلز، مؤلف كتاب: (أيقونات التطور)؛ أحد الكتب ذات التأثير الواسع في نظرية التصميم الذكي، ويحمل جونثون ويلز شهادة الدكتوراه في تخصص علم أحياء الخلية وجزيئات الخلية من جامعة بيركلي، وشهادة دكتوراه أخرى في الدراسات الدينية من جامعة ييل، وهو عضو في الكنيسة الوحدوية. وتمَّ تمويل دراسته عن طريق القس صن مايونغ موون. ويذكر ويلز في كتاباته أنه سعى إلى تحصيل شهاداته العملية بهدف محاربة نظرية التطور. وذكر في أحد مقالاته

التي نشرها موقع: (الآباء الحقيقيون) وهو واحد من المواقع الإلكترونية التابعة للقس موون، بأن «كلمات القس، ودراساتي، وصلواتي أقنعتني بأن أنذر حياتي لتدمير الداروينية، تماماً كما نذر كثير من إخوتي في الكنيسة الوحدوية حياتهم لتدمير الماركسية. ولما اختارني الأب موون - إلى جانب ثلة من علماء اللاهوت - للدخول في برنامج الدكتوراه عام 1978، رحبت بالفرصة لتهيئة نفسي للمعركة»[64].

وقد مكنت الدرجات العلمية والرتب الأكاديمية مؤيدي التصميم الذكي من تقديم نظريتهم في قالب يجعلها أكثر احتراماً من نظرية الخلق، حين تقدم في قالب ليس لها. لكن، وكما تشير كلمات ويلز، فإننا لسنا أمام تنازع عادي بين تحليلات علمية. إنها حرب مقدسة.

◆

وتسعى نظرية التصميم الذكي إلى جعل العلم متطابقاً مع (رب) منخرط - وعن قرب - مع الجنس البشري؛ فهو يصدر الوصايا، ويطلب منهم الطاعة، إنه (رب) يضع المبادئ التي تنظم المجتمع[65]. وكتب جونسون يقول: «إن ما نحتاج إليه هو أن يتحدث (الرب) إلينا، أن يعطينا أسساً متينة يمكننا البناء عليها». ولكن ما هي كلمة الرب؟ والإجابة بالنسبة لجونسون في غاية الوضوح. فقد تابع قوله: «وحين نصل إلى تلك النقطة في تساؤلاتنا، فإننا - حتماً - سنواجه شخص يسوع المسيح!!»[66].

يريد جونسون من المسيح أن يحل محل المذهب المادي والمذهب الطبيعي بوصفه أساساً للحقيقة العلمية. ونظرية التصميم الذكي هي أداة لتحقيق ذلك، كما جاء في إستراتيجية الإسفين: «إن نظرية التصميم الذكي تَعِد بقلب الهيمنة المعرقلة التي يفرضها المذهب المادي، وإحلال علم منسجم مع المسيحية والقناعات المؤمنة بوجود الإله مكانها».

ولتحقيق ذلك الهدف، تقترح (إستراتيجية الإسفين) خطة خمسية لمحاصرة المؤسسة العلمية والتعليمية، وتتوقع أن تقوم عشرون ولاية أمريكية بتصحيح (الاختلال في التوازن الأيديولوجي) في مناهج العلوم المقررة في مدارسها عن طريق إدخال (التصميم الذكي). وتتوقع أن تنتشر الحركات المؤيدة (للتصميم الذكي) حول العالم، وأن يجعل المشرعون من التصميم الذكي أساساً لمشروعات القوانين التي يقترحونها». بعبارة أخرى تكون (إرادة الرب) المتصورة أساس التشريع. فالخطة - إذاً - هي هدم مفاهيم عصر التنوير حول العالم الحسي، قبل أن يصار إلى تقويض المفاهيم الاجتماعية التي تكونت في ذلك العصر. إن سعي واضعي (إستراتيجية الإسفين) لا يقتصر على دحض تشارلز داروين وحسب، بل يتعداه إلى دحض أساس الفكرة القائلة: إن (الحقيقة) يمكن التوصل إليها دون الرجوع إلى مصدر إلهي، ودحض جوهرها. وبناءً على ذلك يصبح القانون الديني أكثر انسجاماً مع العقل حين يكون الدين هو أساس الحقيقة.

ويذكر واضعو (إستراتيجية الإسفين) أن المرحلة الثانية من برامجهم (تهيئة القبول الشعبي لأفكارهم) عن طريق الاعتماد على صانعي الآراء، وعلى (قواعدنا الشعبية الطبيعية، أي أتباع الديانة المسيحية). وقد استطاع أنصار مركز العلوم والثقافة، المسلحون بالدرجات العلمية والمصداقية الأكاديمية، تأمين مثولهم أمام مجالس التعليم في الولايات للشهادة، وإبداء الرأي في المناقشات المتعلقة بالسياسات التعليمية، ونشر المقالات والدراسات المعززة لوجهة نظرهم في الصحف الدارجة. كما يتم عرض آرائهم لتقديم نظرة (متوازنة) عن الجدل القائم بخصوص النشوء والارتقاء.

إن وضع نظرية التطور، ضمن إطار يجعلها طرفاً في (جدل) عام، يعد نصراً مؤزراً لليمين المسيحي. وقد ساعد اليمين المسيحي على إيجاد مناخ أخضع فيه فهمنا للحقيقة التجريبية للضغوط السياسية، بحيث تتغلب الأيديولوجية فيه على النتائج العملية. وقد نجح المحافظون اليمينيون حيث أخفق اليساريون أتباع ما بعد الحداثة في هدم سلطان العقل.

حين تفقد الحقيقة معناها، فإن كل أشكال الخديعة تترعرع وتزدهر. إذ كيف يمكننا معرفة أن الآباء المؤسسين لم يقصدوا وضع نظام سياسي ديني؟ ومن يملك الحق في تقرير أنه لم يكن في العراق أسلحة دمار شامل؟ هل يمكن لأي شخص أن يثبت أنه لا يوجد مؤامرة يدبرها الشواذ؟ هل كان جون كيري بطلاً، أم أنه أطلق الرصاص على نفسه؟ ثمة جانبان لكل قصة وخبر، أليس كذلك؟ فمن ستصدق: القسيس، أم الإعلام الليبرالي؟

إن هذا النوع من المناخ السيكيولوجي ـ المتسم بسهولة التصديق والتشكك الساخر البائس في آن واحد ـ يوفر للحركات الشمولية مجالاً فسيحاً للنمو والتوسع. وكما تذكر حنّة آرندت في كتابها: (أصول الأنظمة الاستبدادية): «قبل أن يتمكن القادة الشعبيون من الاستيلاء على السلطة لجعل الواقع يتلاءم مع أكاذيبهم، فإن تضليلهم الإعلامي يكون موسوماً باحتقارهم الشديد للحقائق بذاتها؛ لأن الحقيقة – من وجهة نظرهم – تعتمد كلياً على قوة الإنسان الذي يستطيع تلفيقها»[67].

♦

ما كان (لإستراتيجية الإسفين) أن تتقدم بهذه الفاعلية لولا دعم حلفائها المهمين في الحزب الجمهوري، وبخاصة عضو مجلس الشيوخ السيناتور رك سانتوروم ممثل ولاية بنسيلفينيا في المجلس. وفي أثناء ولاية جورج بوش الأولى، حاول سانتوروم إرفاق تعديل يرمي إلى تشجيع تدريس (التصميم الذكي) على مشروع قانون (لا طفل يترك في الخلف). وجاء في مذكرة الاقتراح ما نصه: «حين تدرس الموضوعات التي يمكن أن تثير جدلاً فيها (كالانتخاب الطبيعي والارتقاء)، فإن على المنهاج الدراسي أن يساعد الطلبة على فهم المجال الكامل لوجهات النظر العلمية الموجودة، بخصوص الأسباب التي تجعل مثل هذه الموضوعات مثاراً للجدل في الأوساط العلمية، وكيف تؤثر الاكتشافات العلمية تأثيراً عميقاً في المجتمع». وقد تمَّ تبني التعديل بوصفه جزءاً

من (تقرير المؤتمر) عن القانون، وليس من صلب القانون، مما يعني أنه يتمتع بقوة إرشادية وحسب.

وتبدو هذه اللغة ملطفّة، غير أن هدف سانتوروم هو مساندة المعارضين لنظرية التطور بالدعم الحكومي. وفي عام 2002، ثار النقاش في ولاية أوهايو عن إضافة (التصميم الذكي) إلى المعايير العلمية في المنهاج العلمي المطبق على مستوى الولاية. وكتب سانتوروم مقالة نشرتها صحيفة واشنطن تايمز، يدعم فيها التعديل، وجاء في المقال: «لو أهمل مجلس التعليم في ولاية أوهايو إدراج تدريس التصميم الذكي في المعايير التدريسية الجديدة، فإن كثيراً من الطلاب سيحرمون من تعليم علمي من الدرجة الأولى، وسيتخلف كثير منهم عن الركب العلمي»[68].

ولم يكن من المستغرب أن يقف سانتوروم موقفاً مؤيداً من السياسية التي تبنتها مدينة دوفر. فقد وزع مجلس المدرسة بدوره صوراً من مقالة سانتوروم التي تنادي بتدريس (التصميم الذكي)، مرفقة بجدول أعمال اجتماعه العام الأول عام 2005.

◆

ومع أن بل بكنغهام كان في البداية يحاجُّ لصالح تدريس نظرية الخلق في دوفر، إلا أنه سارع بعدها في تبني عبارة (التصميم الذكي) بدلاً من الخلق. وهذا التغيير في لغة الخطاب يعدُّ على قدر كبير من الأهمية؛ لأن عبارة (التصميم الذكي) تمت صياغتها للتحايل على قرار المحكمة العليا الذي يحرِّم على المدارس الحكومية تدريس نظرية الخلق. وعلى ذلك، فإن نظرية (التصميم الذكي) المقدمة بوصفها نظرية علمية تعمل على تجنب الاعتراض المستند إلى مادة التعديل الأول من الدستور التي تحظر تدريس المذاهب الدينية في المدارس الحكومية. ويأمل مؤيدو (التصميم الذكي) في إقناع الرأي العام بأن نظرية التطور هي نظرية معرضة للهجوم داخل المجتمع العلمي، وأنها نتيجة لذلك لا تستحق المكانة الرفيعة التي تحظى بها في مناهج مادة الأحياء.

وفي اجتماع مجلس مدرسة دوفر المنعقد في 14 يونيو من عام 2004، ذكر بكنغهام أنه يريد من المجلس أن يأخذ بالاعتبار تبني منهاج علمي يدرس (التصميم الذكي)،

مثل كتاب عن: (الباندا والإنسان): السؤال المركزي عن الأصل البيولوجي. المطبوع عام 1989. وكان هذا أول كتاب استخدم عبارة (التصميم الذكي). وكان ذلك يمثل رداً إستراتيجياً على حكم المحكمة العليا الأمريكية الصادر عام 1987 في قضية إدواردز ضد آغيلارد، وهو الحكم الذي أبطل القانون الذي سنته ولاية لويزيانا، ويفرض على مدارس الولاية تدريس (علم الخلق) إلى جانب (النشوء والارتقاء). ومنذ أن قضت المحكمة بأن (علم الخلق) يشكل مذهباً دينياً، نشط معارضو نظرية التطور في مسعاهم لإعادة بعث أركان مذهب القول بالخلق، ووضعه في قالب يخفي تطلعاتهم الدينية. ومن هنا ولدت عبارة: (التصميم الذكي).

وشارك بيرسيفال ديفيس - وهو أحد مؤلفي كتاب: (عن الباندا والإنسان) - في تأليف كتاب الحجج المؤيدة للخلق. وقد وصف إعلان لكتاب الباندا منشور في موقع الإجابات في سفر التكوين - وهو من المنظمات الرئيسة للقائلين بالخلق - الكتاب بأنه «متقن التأليف، ويناسب المدارس التي لا تتبع خطاً إنجيلياً»، ومع ذلك فهو يحتوي على تفسيرات تستند إلى فكرة الخلق وعلى حجج تدحض البراهين التي نجدها في الكتب المدرسية الأخرى التي تقول بالنشوء والارتقاء!

وتعود ملكية حقوق طبع كتاب (عن الباندا والإنسان) ونشره، إلى مؤسسة الفكر والأخلاق؛ وهي مؤسسة غير ربحية تتخذ من تكساس مقراً لها، ويرأسها جون بويل، وهو قس رسمي، وموظف سابق في جمعية الحملة الصليبية لأجل المسيح في الجامعات. ويصف النظام الأساسي للمؤسسة مهمة مؤسسة الفكر والأخلاق بما يأتي: «الإعلان، والدعوة، والتبليغ، والنشر، وتدريس ... الإنجيل المسيحي، وفهم الإنجيل والنور الذي يشعه على القضايا الأكاديمية والاجتماعية المعاصرة». وتنشر المؤسسة كتابين آخرين من الكتب المنهجية؛ كتاب يدعو إلى العفة والحفاظ على العذرية، وعنوانه: (الجنس والشخصية)، وكتاب غير مسبوق في التاريخ، وهو كتاب عن (الدور الحاسم الذي أدته الديانة المسيحية في تأسيس الدولة الأمريكية).

وليس من المستغرب أن يكون مركز العلوم والثقافة التابع لمعهد ديسكفري على ارتباط وثيق بمؤسسة الفكر والأخلاق. فالمحرر الأكاديمي المسؤول في المؤسسة وهو

ويليام دمبسكي، كان زميلاً سابقاً في مركز العلوم والثقافة، كما تنشر المؤسسة كتباً لكلٍ من ستيفن ماير مدير برنامج المركز، و فيليب جونسون مستشار البرنامج.

وانسجاماً مع أجندة واضعيه، فإن كتاب: (عن الباندا والإنسان) ليس له طابع كتب الأحياء التي تدرس في المرحلة الثانوية، بل هو هجوم كاسح على الداروينية:

> «إن خلق كائن حي جديد، يشبه بيتاً جديداً، من حيث وجوب البدء بالمخطط. إذ لا يمكننا بناء قصر عن طريق العبث في مخزن الأدوات، وإضافة قطع صغيرة من الرخام هنا وهناك. بل نبدأ بوضع مخطط لهذا القصر يضمن التناسق والانتظام بين كل الأجزاء في مجموع كامل متناسق.
>
> إن التطور الداروينـي يرجع أصل الكائنات الحية الجديدة إلى أسباب مادية، وإلى تراكم الطباع الفردية. وهذا يشبه القول: إن أصل القصر المشيد هو الأجزاء والقطع الرخامية التي وضعت في مخزن الأدوات»[69].

◆

ليست السيدة براون – ذات القوام الرشيق، والشعر المقصر الأشقر المائل إلى الحمرة، ومنطقها المتزن – من المتخصصين بالعلوم، ولكنها تفتخر بكونها كثيرة القراءة والمطالعة، وهي تعرف – بعد عشر سنوات من الخدمة في مجلس المدرسة – كيف تميز كتاب الأحياء الجيد من الرديء. وحين رأت كتاب (عن الباندا والإنسان)، أصابها الغثيان، وقالت في امتعاض: «إنه كتاب سيئ من الناحية العلمية، وهو أسوأ من الناحية اللاهوتية».

وبحسب ما تقوله براون، فإن بكنغهام تخلى عن فكرة تدريس كتاب (عن الباندا والإنسان)، وذلك في اجتماع مجلس المدرسة الذي عقد في أغسطس، ولكنه أصر على شراء الكتاب، وعدِّه من المصادر الإضافية في مادة الأحياء، وإلا فإنه لن يقر شراء كتاب الأحياء الذي ارتآه المجلس. وحدث أن عضواً في المجلس من مؤيدي بكنغهام تغيَّب عن

ذلك الاجتماع بسبب المرض، فكانت نتيجة التصويت 4 - 4. وفي النهاية - وخشية من بدء العام الدراسي دون توافر الكتب المقررة - قام أحد الأعضاء بتغيير رأيه، وتم اعتماد كتاب الأحياء. وبدا وكأن هذه الدراما الصغيرة في تلك البلدة قد انتهت.

«غير أنه بعد رفض اقتراح اعتماد كتاب (عن الباندا والإنسان) بمدة وجيزة، قام بكنغهام بجمع مبلغ 850 دولاراً من رعايا الكنيسة التي يرتادها لشراء الكتاب سراً. ودفع المال الذي جمعه إلى والد أحد أعضاء مجلس المدرسة، ليقوم بالتبرع بستين نسخة من كتاب (عن الباندا والإنسان) دون الكشف عن هوية المتبرع»[70] وحين وصلت الكتب إلى المدرسة أنكر بكنغهام وأنصاره أي علم بالشخص الذي تبرع بها. ثم بدؤوا يبحثون في كيفية دمج تلك الكتب في المنهاج الدراسي.

وفي 18 أكتوبر من عام 2004، صوت المجلس بالموافقة على قرار قدمه بكنغهام ومناصروه، ينص على أنه «ينبغي أن يعي الطلاب الثغرات والمشكلات التي تعاني منها نظرية داروين، وأن يكونوا على علم بنظريات التطور الأخرى، بما فيها - على سبيل المثال لا الحصر - (التصميم الذكي). ملاحظة: أصول الحياة لا تدرّس». وتم وضع نسخ كتب (عن الباندا والإنسان) في قاعة تدريس مادة العلوم، وأعطي المعلمون تعليمات تقضي بأن يقرؤوا على الطلبة توجيهات تنصحهم بالعودة إلى هذه الكتب.

أبدى كل من كيسي وجف اعتراضهما على هذه الإجراءات. وقالت كيسي: «لقد كررنا اعتراضنا على هذه الإجراءات، وقلنا: إنها ستدخلنا في مشكلات قانونية. إنها مخالفة صريحة وواضحة للقانون»، واقترحت كيسي بديلاً يتمثل بتقديم مادة اختيارية تدرس فيها خرافات الخلق في مختلف الأديان.

إلا أن بكنغهام بقي مصراً على موقفه، وشكك «بعلم معارضيه بالتاريخ الأمريكي، وبمعرفتهم، وبوطنيتهم» بحسب ما نقلته صحيفة محلية[71].

وأخيراً، صوت المجلس على القرار، وحصل قرار إلزام تدريس (التصميم الذكي) على 6 أصوات مقابل 3. فاستقالت كيسي وزوجها جف براون من المجلس احتجاجاً على ذلك. وتوجه المعارض الثالث واسمه نوييل وينرتش إلى بكنغهام، قائلاً له: «لقد خسرنا شخصين جيدين بسببك».

وتذكر كيسي ما حدث قائلة: «فرد عليه بكنغهام بألفاظ نابية قائلاً إلى حيث ألقت: قمامة أزيلت من طريقنا، ثم انهال على السيد وينرتش بكل ألفاظ الشتائم والسباب».

لم يكن مستغرباً أن يسارع رهط من أولياء أمور الطلبة بالانضمام إلى جانب الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية في الدعوى التي رفعها على مديرية التربية في المقاطعة، وهو ما أدى إلى تفاقم مشاعر الشحناء والبغضاء بين سكان البلدة. وأعلن عن رفع الدعوى في 14 ديسمبر من عام 2004، في مؤتمر صحافي أمام المبنى الحكومي في مدينة هاريسبيرغ عاصمة ولاية بنسيلفينيا. وتجمع المراسلون والمصورون حول الميكروفون، في حين تعاقب أولياء أمور الطلبة، والمحامون، ورجال الدين الليبراليون، والعلماء للتحدث إلى وسائل الإعلام.

وحضر القس باري لن؛ المدير التنفيذي لمنظمة اتحاد الأمريكيين للفصل بين الكنيسة والدولة، وقد قدم من العاصمة واشنطن خصوصاً لهذا الحدث. وقال في كلمته إلى الصحافيين: «إننا نخوض المعارك من هاواي إلى كاليفورنيا إلى نيو هامبشير إلى مقاطعة كوب» وفي هذه الأخيرة إشارة إلى مديرية التربية في مدينة أطلانطا، التي وضعت ملصقات تحذيرية على كتب الأحياء المقررة تقول عن النشوء والارتقاء إنه: «مجرد نظرية وليس حقيقة علمية ثابتة».

وبينما كانت الكاميرات تصور المؤتمر الصحافي، حاول عدد من المتظاهرين الزج بأنفسهم قبالة تلك الكاميرات للظهور في المشاهد المصورة. ووقف رجل اسمه كارل جاربو - وكان يلبس معطفاً بنفسجياً وقبعة مصنوعة من الفرو - بالقرب من أولياء الأمور رافعاً لافتة خضراء مشعة مكتوباً عليها: «الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية يطمس الحقيقة» في حين رفعت زوجته - التي كانت تضع وشاحاً على رأسها وتلبس نظارات صغيرة مدورة - لافتة تقول: «النشوء والارتقاء: غير علمي وغير صحيح. لماذا يعارض الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية أن تقدم المدارس كل الأدلة والبراهين؟».

تجاهل أولياء الأمور المتظاهرين. وظهرت على معظمهم علامات التردد إزاء الكاميرات. فهم ليسوا بالمحاربين الثقافيين، كما أنهم لا يتقنون التحدث بمنطق أيديولوجي. وتركز حديثهم على ما فعله بكنغهام وغيره من أنصار الخلق بمدرستهم ومجتمعهم الصغير.

وصرحت كريستي رهم - وهي أم لأربعة أولاد، وتبلغ من العمر 31 عاماً - عقب المؤتمر قائلة: «إننا لا نعتقد أن (التصميم الذكي) من العلم بشيء، ولدينا ثقة بأنفسنا بصفتنا أولياء أمور أن باستطاعتنا أن نعلم أبناءنا أمور الدين على نحو جيد»، وأضافت تقول: «لدينا ثقة برجال الدين، ولدينا ثقة بمجتمعنا بأن أبناءنا سينشؤون على درجة من الصلاح. لذلك فإننا لا نشعر أن من وظيفة مجلس المدرسة أن يتخذ ذلك القرار فيما يخص أبناءنا».

كان جاربو - الذي قال لي: إنه أستاذ مساعد سابق في الكيمياء في كلية المسيح، وهي معهد مسيحي يقع على مقربة من مكان انعقاد المؤتمر - مقتنعاً بأن بعض الجهات استغلت أولياء أمور الطلبة لتعزيز أجندة شريرة، وهو في ذلك يضاهي معظم أتباع اليمين المسيحي الذين يرون في الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية مؤسسة هدامة، وربما مؤسسة شيطانية. وقال جاربو: «ما زلت أعتقد أنها واجهة شيوعية».

ثم وضع في يدي مطوية حصل عليها من ندوة عن الخلق، كان قد حضرها في كنيسة الإيمان المعمدانية في مدينة لبنان القريبة من العاصمة. ونظم هذه الندوة الدكتور كينت هوفيند؛ وهو من أنصار القول بالخلق، ويقول الدكتور كينت، كما ورد في المطوية: «لقد ثبت بالبرهان أن الإنسان عاش على هذه الأرض في الوقت الذي عاشت فيه الديناصورات». ولتأكيد هذه النقطة، يدير هوفيند مدينة ألعاب في بنسيكولا بولاية فلوريدا، واسمها: (أرض مغامرات الديناصور). وتضم معارض ومركبات مقطورة تأخذ الركاب في دورة حول العصر غير البعيد الذي كان الإنسان والديناصور يجوبون فيه الكرة الأرضية معاً.

ونصحني جاربو بأن أقرأ مؤلفات كن هام؛ الذي أوجد مؤسسة الإجابات في سفر التكوين، ومؤلفات دوين غيش؛ الأستاذ في معهد أبحاث الخَلْق، وهو معهد يضم كلية

دراسات عليا تمنح الدرجات العلمية في تخصص الخلق. وينشر المعهد كتاب (غراند كانيون: وجهة نظر مختلفة)، ويعزو الكتاب وجود الشرخ الجبلي الكبير في السلسلة الجبلية (الواقعة شمال ولاية آريزونا ويحاذي نهر كالورادو)، إلى طوفان نوح. ويباع هذا الكتاب منذ عام 2003 في متجر لبيع الكتب تديره الحكومة في موقع المتنزه الوطني في تلك المنطقة، وذلك برغم اعتراض كثير من موظفي المتنزه.

ويحظى كل من غيش وهام باحترام كبير في الدوائر الإنجيلية بوصفهما كاتبين مشهورين في حقل العلوم، شهرة توازي شهرة ستيفن جي غولد وريتشارد دوكينز في الدوائر العلمية العلمانية. وكان مؤيدو بكنغهام يقتبسون من أقوال غيش وهام في اجتماعات مجلس مدرسة دوفر، لإثبات أن (علم الخلق) أو (التصميم الذكي) - وهما عبارتان مترادفتان في نظرهم - في الحقيقة وواقع الحال، علم. وفي ظل انعدام الاتفاق على أبسط الحقائق أو على مصادر المرجعية، فإن المناقشات بين أنصار (الخلق) وأنصار (النشوء والارتقاء) نقاشات عديمة الفائدة والجدوى؛ لأنه من المستحيل إقامة حوار ما، دون وجود إحساس مشترك عن الحقيقة.

انتقام ويليام جنينغز براين:

يرى بعض الخبراء على أن (النشوء والارتقاء) أمر قريب من الحقيقة. غير أن الشعب الأمريكي لا يرى ذلك. ففي استطلاع للرأي قامت به محطة سي بي سي نيوز وصحيفة نيويورك تايمز عام 2004 عن (الانتخاب الطبيعي والارتقاء) وجد فيه أن 55 % من الناس يقولون: إن «الرب» هو الذي خلق الإنسان بهيئته الحالية. وقال 27 %: إنهم يؤمنون (بالنشوء والارتقاء) في الجنس البشري، ولكن بحسب توجيه الرب، وقال 13 %: إنهم يؤمنون (بالنشوء والارتقاء) من دون وجود إله.

وتأسيساً على ذلك، فلا عجب - إذاً - من أن معظم الأمريكيين - 65 % بحسب استطلاع الرأي المذكور آنفاً - يؤيدون تدريس (الخلق) إلى جانب (الارتقاء) في المدارس الحكومية. ويمثل القول (بالخلق) قضية مثالية في الحرب الثقافية، لأنها في النهاية تضع غالبية المجتمعات السكانية المحلية في صف واحد مقابل المحامين

والعلماء. وفي بلد تحظى فيه الاتجاهات اليمينية بشعبية عالية، فإنه ليس من العسير تأجيج الكراهية الموجهة إلى العلماء الذين يجرؤون على التفكير بأنهم أكثر معرفة من بقية الناس.

ومن هنا، كان الاتجاه المناهض للداروينية عنيداً ومتصلباً. ولم تتغير لغة خطابه إلا قليلاً. ويرجع كثير من المؤرخين بداية الحرب الثقافية الحالية إلى عام 1925. وهي السنة التي تمت فيها محاكمة سكوبس الشهيرة (بمحاكمة القرد) في مدينة ديتون بولاية تينسي.

كانت المعركة عن (النشوء والارتقاء) على أشدها بداية عام 1920 في البلاد، ووصلت إلى ذروتها حين تحدى جون سكوبس - المدرس ذو الأربعة وعشرون عاماً - قوانين الولاية التي يعمل فيها، التي كانت تحظر على المدارس تدريس نظرية داروين في (النشوء والارتقاء). ومهدت محاكمته السبيل أمام منازلة مثيرة في ساحة المحكمة، وقف فيها محامي الدفاع من مدينة شيكاغو كليرانس دارو، في مواجهة ويليام جنينغز براين؛ المدعي العام والمناضل الأصولي المسيحي ذو الشعبية الواسعة، الذي ترشح للرئاسة ثلاث مرات.

قام براين، الذي يعد من أبرز مناهضي نظرية الارتقاء على الإطلاق في الولايات المتحدة، بوضع قضيته في قالب ديمقراطي. ويذكر المؤرخ رونالد نمبرز في كتابه: (المؤمنون بالخلق)، قائلاً: «لقد وضع براين طيلة عمله السياسي ثقته بعامة الشعب، ورفض أي محاولة تقوم من بضعة آلاف من العلماء النخبويين (لتأسيس أوليغاركية "حكم الأقلية" فوق 40 مليون مسيحي أمريكي) وفرض ما يجب تدريسه في المدارس»[72].

كسب براين ورفاقه الذين حاكموا سكوبس قضيتهم في المحكمة، غير أن الاستهزاء والسخرية التي تبعتها على المستوى الوطني كان لها أثر كبير في استعداء المسيحيين المحافظين ونبذهم من المجتمع العلماني، وهو ما مهد الطريق أمام الصراع الثقافي الذي استمر على مدى العقود اللاحقة. وفي أعقاب نصرهم الذي جاء بثمن باهظ

في تينسي، أدار كثير من الأصوليين - وبالمناسبة كانت تلك المحاكمة بداية لدخول مصطلح (الأصوليين) المعجم الأمريكي - ظهورهم للمدارس الحكومية ووسائل الإعلام الدارجة، وعملوا - بدلاً من ذلك - على إنشاء مؤسساتهم التعليمية والإعلامية الخاصة بهم، والمناهضة للثقافة السائدة[73].

وقد حدث ذلك كله بطريقة خفية لم يلحظها الأشخاص من خارج تلك المجتمعات. وبدا المذهب القائل بالخلق وكأنه قد فقد مصداقيته، وهزم هزيمة نهائية. ومع انتصاف القرن الماضي، وبفعل الحرب الباردة، وزيادة التنافس مع الاتحاد السوفييتي ازداد اهتمام البلاد بالتعليم العلمي الفذ، وتولت المؤسسة الوطنية للعلوم مهمة الإشراف على وضع مناهج جديدة في مادة الأحياء تركز على (الاختيار الطبيعي والارتقاء). وأظهر فيلم سينمائي أنتج عام 1960 بعنوان: (إرث الرياح) وهو فيلم مؤسس على مسرحية تحمل العنوان نفسه: براين في صورة القائد الغوغائي الشرس، وأظهر معارضي نظرية الارتقاء بوصفهم في منتهى الغباء والتخلف. ونال هذا الفيلم أربع جوائز أوسكار.

وعلى الرغم من ذلك كله، كان الأصوليون في أثناء تلك المدة ينشّئون أجيالاً جديدة من المؤمنين بالخلق. ولما اشتد عود هذه الأجيال في العقود اللاحقة، هيأت لهم تلك المؤسسات قاعدة ينطلقون منها في محاولاتهم للاستيلاء على التوجه العام في المجتمع الأمريكي.

وحدثت عدة محاولات منذ محاكمة سكوبس، تهدف إلى تدريس (الخلق) في المدارس الحكومية، وترددت فيها أصداء الحجج الشعبية التي ساقها براين في تلك المحاكمة. غير أن قضية إدواردز عام 1987، أغلقت أبواب المحاكم في وجه القائلين بالخلق نهائياً.

وتراجع كثير من الأصوليين إلى المدارس الخاصة، أو إلى تدريس أبنائهم في البيوت. حيث ازدهر فيها تدريس (الخلق)، وأصبحت دور الكتب التي تبيع الكتب المسيحية، ومعارضُ الكتب المدرسية المسيحية تعج بالكتب وأقراص الفيديو الرقمية

التي تتحدث عن الخلق بأساليب تناسب مختلف الفئات العمرية. وهناك برامج مذياع وندوات ومؤتمرات تقام للمعلمين والطلاب، إضافة إلى رحلات سياحية خاصة بالمؤمنين بالخلق لزيارة متنزه غراند كانيون (الشرخ العظيم)، وجزر الفاليوس لمن يملك المقدرة المالية. وبحسب ما يذكره معهد أبحاث الخلق، فإن علم الخلق يدرس في 188 كلية إنجيلية. وهناك مركز دراسات الخلق في جامعة الحرية التابعة للقس جيري فالويل. وأنعمت هذه الجامعة على كن هام بشهادة الدكتوراه الفخرية عام 2004.

استطاع كن هام - الذي عمل مدرساً للعلوم في أستراليا - أن يبني واحدة من أقوى القلاع في حركة أنصار الخلق. وتضم مؤسسة (الإجابات في سفر التكوين) مئة موظف، وتوزع كماً هائلاً من الكتب وأشرطة الفيديو وأقراص الفيديو الرقمية التي تتحدث عن الخلق، إضافة إلى أدلة للمعلمين. وفي هذا الوقت، يشرف هان على إنشاء متحف للأحياء، وآخر للنظام الشمسي مخصصين لدعم (الخلق)، وتبلغ مصاريف المشروع 25 مليون دولار، ويقع على مساحة 50 ألف قدم مربع بالقرب من مدينة سينسيناتي. ومن المتوقع أن يتم الفراغ منه عام 2007. ويمضي هام أوقاته في السفر حول البلاد، وحول العالم للدعوة إلى أن الإنجيل هو الكلام الحرفي للرب، وأن عمر الأرض لا يتجاوز بضعة آلاف عام، وأن الديناصورات هي التنين الذي عاش مع آدم في جنة عدن قبل أن يعصي ربه.

قابلت هام في فبراير من عام 2005 في أثناء مؤتمر عقدته مؤسسة (الإجابات في سفر التكوين) الذي عقد في كنيسة كورال ريدج التابعة لجيمس كيندي في مدينة فورت لوديرديل بولاية فلوريدا. وتضم هذه الكنيسة التابعة للمذهب البروتستانتي المشيخي (برسبيتيريان) في عضويتها 10 آلاف شخص. وحضر المؤتمر الذي دام ثلاثة أيام بضع مئات من أولياء أمور الطلبة، ومعظمهم يدرسون أبناءهم في المنازل، بدلاً عن المدارس الحكومية. وحضر جميع طلاب الصف التاسع من مدرسة كيندي الخاصة، البالغ عددهم مئة طالب، عدداً من تلك المحاضرات.

يرتفع برج كنيسة كورال ريدج الأبيض كالسراب وسط الطريق السريع المعبدة بالإسمنت المسلح والإسفلت؛ وبوقوعها وسط حقول فلوريدا الممتدة، فإنها تبدو

للناظر وكأنها كاتدرائية من العصور الوسطى في عصر الفضاء. وفي الداخل، يوجد في الكنيسة قاعة صلاة ذات أقواس بيضاء، تتخللها أضواء ملونة تنعكس من النوافذ الزجاجية الصغيرة الملونة.

ويوجد في صدر القاعة مِقرَأ للخطابة وتلاوة الكتاب المقدس، مصنوع من خشب الماهوغني، وقد وقف المتحدثون في مؤتمر (الإجابات في سفر التكوين)، واحداً تلو آخر خلف ذلك المقرأ، لاستعراض تفسيرات إنجيلية مطولة، و(حجج) تبدو للسامع وكأنها علمية (للبرهنة) مثلاً، على أن استخدام الكربون في حساب عمر الأرض هو حساب غير صحيح. وفي إحدى المرات، قال كيندي للحضور: إن فكرة (النشوء والارتقاء) «هي أخطر فكرة هدامة دخلت عقل الإنسان»، لأنها كانت مصدر إلهام الشيوعية، وبذلك تكون مسؤولة عن 135 مليون من البشر.

كان هام أكثر المتحدثين في كورال ريدج نشاطاً وحيوية. وبخديه المجوفين ولحيته الشائبة الشعثاء، ظهر وكأنه قد خرج من العصور الغابرة، فهو يشبه في مظهره بطارقة طائفة الآميش. ولكنه مع ذلك أثبت أنه نجم استعراضي عصري، ذو أداء فاعل أمام الجمهور، فقد كان يتحرك تجاه الحضور، ويتحدث بوتيرة مسرعة، ثم يتوقف فجأة لتأكيد ماسيقول، ويطرح الأسئلة على الجمهور ويمتعهم بالنكت والطرائف من وقت لآخر.

قال هام للحضور: «لست أعتذر عن حقيقة أنني أجعل كلمة (الرب) الأساس لتفكيري... هذه هي نقطة البداية عندي، وهي قاعدة بدهية... ولكنك إذا ذهبت إلى المدارس الحكومية، حيث ينكرون أن (للرب) أي صلة بالحقيقة والواقع، فإن الإنسان يصبح هو الذي يقرر الحقيقة». وقال: إن الحديث عن العلم دون أي ذكر (للرب) هو عمل منافٍ للمسيحية بحد ذاته، وأضاف: «فأنت إما أن تكون مع المسيح أو ضده».

وقال هام: إن كل شخص ينظر إلى الحقيقة بواسطة زوجين من النظارات المجازية؛ «فأنت إما أنت تضع نظارات كلمة الرب، أو نظارات كلمة الإنسان»، ولا يمكنك نزع تلك النظارات عنك، لتكون موضوعياً. ويصبح السؤال: في أي من هذه

النظارات ستضع ثقتك؟ وتابع هام قوله: «إن الكتاب المقدس يقدم لنا سرداً للتاريخ، يمكّننا من وضع الفرضيات الصحيحة للوصول إلى الطريقة الصحيحة في التفكير في كل شيء ... أليس من المثير للبهجة أن تكون مسيحياً؟ إن لدينا التاريخ لتفسير الكون!».

كانت الطاولات المصطفة في الصالة الكبيرة تنوء بأكوام الكتب التي تروج للقول بالخلق، وهي كتب تخاطب الأطفال إلى طلبة الدراسات العليا، وجميع الفئات العمرية بينهما. وتركزت معظم كتب الأطفال على الديناصورات في جنة عدن، وعلى سفينة نوح، أو على الاثنين معاً. (الدال ديناصور)، هذا هو عنوان كتاب لتعليم الأحرف الهجائية للأطفال، بجمل ذات سجع لتسهيل الحفظ، وهو من تأليف هام وزوجته مالي. وإليكم قطعة من هذا الكتاب:

الميم معرفة، جعلت نوحاً في حزن شديد؛

فقومه أعرضوا عنه وتوعدوه أشد الوعيد!

فعرف أن حكم (الرب) ماضٍ فيهم غير بعيد.

فـ(الرب) حذرهم من عذاب مهين

من طوفان يغمر الأرض بالماء والطين.

عندما تحدثت إلى هام، كان واثقاً أن أفكاره ستنتقل إلى الاتجاه العام. وقال: «بسبب كل هذه المعلومات التي نبثها للناس - الكتب، وأقراص الفيديو الرقمية، وغيرها - أصبح موقع (الإجابات في سفر التكوين) بحكم الخزان الكبير الذي تخرج منه كل هذه الأنابيب ... وأصبح الناس يحصلون على هذه المواد التعليمية، ويتبادلونها مع الآخرين من أصدقاء ومعارف وأقارب. إنها كشبكة العنكبوت؛ تنمو وتمتد. وحين ننظر في طول البلاد وعرضها، ونشاهد هذه المعارك والمواجهات بشأن (الخلق والتطور) في غرف تدريس العلوم، فإنني على قناعة بأن كثيراً من الأشخاص المنخرطين في هذه المواجهات هم من المتأثرين بتلك الكتب والمعلومات التي تؤيد القول بالخلق».

أمـا فيما يخص القضـايا التي نالـت قدراً كبيراً من التغطيـة الإعلامية مثل تلك التي حدثت في مدينة دوفر، وفي بنسيلفينيا، فذكر هام بأن ثمة مدارس أخرى - وهي في العـادة المدارس الحكومية في المناطـق الريفية - تدرس الخَلْـق، ولا يطولها رادار وسـائل الإعلام. وقال: «إنني أعرف شخصياً مدرسين يعملون في المدارس الحكومية، ويدرسون الخلق لطلبتهم، أو يدرسونهم المشكلات التي تعاني منها نظرية التطور، ولا يواجهون أي مشـكلة.... ولا تحدث أي مشـكلة إلا حين تتدخل بعض الأسـر الليبرالية الملحدة وتتصل بالاتحاد الأمريكي للحريات المدنية».

لقد سـئم أعداء نظرية التطور الاختباء. ومع نمو الثقافة المضادة القائلة بالخلق، تنامت معها الرغبة الشـعبية بالاعـتراف بمبدأ الخلق وقبوله. ويتوقع هام أن نشـهد مزيـداً من المصـادمات في المدارس الحكومية في هذه القضـية في الأعـوام القادمة. وقال: «لقد بدأ الناس بالتحرك لفعل شـيء ما، وبدؤوا يعبّرون عن مواقفهم الثابتة»، (والتصـميم الذكـي) هـو أداة لتحقيق ذلك. وتابع هـام: «إنني أعتقـد أن كثيراً من المهتمين بإدخال (التصـميم الذكي) إلى صـفوف الدراسة، لا يعرفون أهداف حركة (التصميم الذكي)، وكل ما يعرفونه هو أنها وسيلة لتوجيه ضربة إلى داروين.

وهذا صحيح. ومع أن كثيراً من المحافظين الذين يقتحمون متاريس تدريس العلوم يسـتخدمون لغة خطاب التصـميم الذكي، إلا أن جوهر حججهم لا يختلف كثيراً عن الحجج التي ساقها ويليام جنينغز براين في المحاكمة التي تمت في مدينة ديتون بولاية تينسي قبل ثمانين عاماً.

وفي الخامس عشر من ديسمبر 2004، أدار بات بوكانان مناظرة عن قرار مجلس مدرسة دوفر في مقاطعة سكاربورو، وبثته محطة إم إس إن بي سي. كانت المناظرة بين أربعة مؤيدين لمجلس المدرسـة - عدا عن بوكانان نفسـه - مقابل واحد. أما الضيوف فهـم: ناتلي غرانت؛ نجمة الموسـيقى المسـيحية، وآل موهلر؛ رئيس المعهد اللاهوتي المعمـداني العـالي الجنوبـي، والمخطـط الإسـتراتيجي الجمهـوري جـاك بيركمان، ولتحقيـق التوازن في هذه المناظرة، دعي ديفيد سـيلفرمان، الناطق الرسـمي لمنظمة الملحدين الأمريكيين للمشـاركة في الحوار. ويبدو أنه كان من غير الضروري مشاركة أحد علماء الأحياء.

وكما فعل براين من قبل، قام بيركمان بوضع القضية في إطار الديمقراطية الشعبية. فتساءل: «لماذا القبول باحتكار الولاية أو الحكومة الفدرالية تحديد ما هو علمي من غيره؟ ... إنني لا أرى أي ضير في تقديم وجهة نظر القائلين بالخلق في المدارس، بالنظر إلى أن 70 % من الأمريكيين يريدون ذلك. يجب على القانون أن يعكس الرغبات الديمقراطية. يجب أن يعكس رغبات الشعب».

يبدو أن معظم سكان مدينة دوفر يفضلون المدارس التي تدرس (الخلق)، برغم تردد كثير منهم؛ خشية من مصاريف الدعاوى القضائية التي قد تسببها.

وقد بدأت هذه المنطقة ذات المزارع الجذابة تتعرض للزحف العمراني والسكاني المتمثل في الأحياء السكنية الجديدة. وأخذت دوفر بالتحول إلى منطقة عمرانية بعيدة عن ضواحي المدن المكتظة بالسكان، تنتشر فيها الطرق السريعة، والمحلات التجارية، والسيارات الكبيرة رباعية الدفع التي تحمل ملصقات تعكس المشاعر الوطنية. إنها بلدة ذات توجه جمهوري صرف، إلى درجة أن نتائج الانتخابات تحسم فيها نهائياً في المرحلة التحضيرية. وتعود أصول سكان المنطقة إلى ألمانية، وتبرز فيها كنائس الطائفة اللوثرية، وهي كذلك موطن لعدد متزايد من الكنائس الإنجيلية المتشددة.

وبحسب ما يذكره كل من كيسي وجف براون، فإن دوفر كانت تتمتع دائماً بمناخ من الحرية والانفتاح، بيد أن مظاهر تنامي المشاعر الدينية العدائية بدأت تظهر فيها في الأعوام القليلة الماضية. وبقيت لوحة زيتية تمثل هبوط الإنسان – هدية من خريجي المدرسة – معلقة على جدار قسم العلوم في المدرسة على مدى عشرين عاماً. وقبل وقوع الصدام في المناهج المدرسية المقررة بوقت قليل، قام أحد موظفي المدرسة بإزالتها في أثناء قيامه ببعض أعمال الصيانة، بحجة أنها غير لائقة، فأخذها إلى الخارج وأحرقها.

وفي خضم الجدل الذي عمّ مدينة دوفر في (التصميم الذكي)، أصيبت كيسي بالصدمة، حين سألها أحد أعضاء مجلس المدرسة إن كان سبق لها أن مرت بتجربة

الولادة الجديدة في المسيحية والعودة إلى المسيح؟. وبعد وقت قصير استقالت كيسي وزوجها من عضوية المجلس؛ احتجاجاً على ما حدث، ثم قام الاثنان بمقابلة مع آنا بادخن؛ مراسلة صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل، في أحد المطاعم الصغيرة في البلدة. وبعد خروجهم من المطعم، كتبت بادخن تقول: إن نادلة في الثلاثين من عمرها تعمل في ذلك المطعم أعطتها قصاصة ورق مكتوباً عليها: «احذري! لقد قال لنا (الرب) قبل 2000 عام: إنه سيظهر أنبياء دجالون ومعلمون. وإذا كنت ترغبين بمعرفة الحقيقة فعليك بقراءة الكتاب المقدس»[74].

وقالت لي كيسي بعد ذلك بأسابيع: «يمكنني القول: إن شيئاً ما من هذا ما كان ليحدث قبل عشرة أعوام». كانت جالسة إزاء منضدة المطبخ في منزلهما الواقع في نهاية ضاحية جميلة من المدينة. وكانت تتناوب نسج الصوف، وتدخين سجائر مونتكلير. أما زوجها جف الذي يعمل كهربائياً – وهو ذو عذارين عريضين أشيبين، وعلى رأسه قبعة صوفية خشنة – فكان يدور خلفها رويداً. وهو بليغ الكلام، تهكمي، عاش في المنطقة طيلة حياته، ويبدو أنه يثمن دوره بصفته أحد المفكرين المتحررين في البلدة. وكان على المنضدة نسخة من كتاب: (الارتقاء: نظرية تعاني من أزمة)، وهو من تأليف مايكل دنتون؛ الزميل السابق في معهد ديسكفري. وقد أرسله إليهم بالبريد شخص مجهول الهوية، وأرفق معه ملاحظة تقول: إن الحاجة تدعو إلى توعية الطلبة بالثغرات التي تعاني منها نظرية داروين.

كان كثير من سكان دوفر الذين عارضوا قرار مجلس المدرسة مدفوعين بالقلق من مصاريف الدعوى القضائية، أكثر من اعتقادهم بنظرية التطور. ويقول نويل وينريتش الذي نشأ في دوفر، واستقال من مجلس الكلية عقب انتقاله إلى مقاطعة أخرى، في هذا الصدد: «يمكنني القول: إن الأشخاص الذين يعارضون قرار مجلس المدرسة على أساس مبدئي هم أقلية، غير أنه حين يتعلق الأمر بالمصاريف المالية، فإننا نكون أمام قضية أخرى مختلفة تماماً».

وحتى مع الأهمية المعلقة على المال، كان الدعم الشعبي لقرار المجلس قوياً. وبحسب استطلاع للرأي قامت به عام 2005، مؤسسة سسكويهانا لاستطلاعات

الرأي والأبحاث، فإن أغلبية المصوتين في مدينة دوفر يعتقدون أن (التصميم الذكي) هو رديف للقول بالخلق، ولكنهم مع ذلك أيدوا سياسة المجلس بفارق 45 - 36، مع وجود نسبة 10 % من غير المبالين بهذه القضية، أو الذين ليس لديهم موقف محدد تجاهها. وأيد 40 % (تأييداً شديداً) تدريس (التصميم الذكي)، مقارنة بنسبة 29 % الذين عارضوا (معارضة شديدة) تدريسه.

وبعد التحدث إلى وينريتش، تبين بوضوح ضعف المصداقية التي يتمتع بها داروين في دوفر. وينريتش نفسه - البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً والمتقاعد من الجيش، والأب لولدين - لم يكن يؤمن بالنشوء والارتقاء، وكان يتحدث بالطريقة نفسها التي كان يتحدث بها أشدّ المؤيدين للتصميم الذكي. وقال: «لقد عدنا اليوم إلى حيث بدأنا دورة كاملة، من النقطة التي كانت تمارس فيها الكنيسة في العصور الوسطى سلطة تقرير ما يمكن أن نفكر فيه، وما لا يمكننا التفكير فيه، وطريقة تفكيرنا تلك...

ومع ذلك، شعر وينريتش حين انبرى بكنغهام لتحدي داروين، بأن الشرف يفرض عليه وضع مصلحة المدرسة فوق معتقداته السياسية الشخصية. وقال: «لو كانت الأموال لي فليس لدي مشكلة، سوف أذهب إلى المحكمة وأرفع الدعوى. أما أن تستنزف الأموال العامة التي يفترض أن تصرف على تعليم أبنائنا، فذاك عمل غير مسؤول مطلقاً. لقد كانوا قبل ذلك يناقشون تأجيل شراء الكتب المنهجية، والتوقف عن شراء كتب للمكتبة، وتأجيل تحديث أجهزة الحاسوب. وحين نكون بصدد تقليص في الميزانية، ثم نذهب لخوض معركة قانونية مع المحكمة الفدرالية العليا، فهذا عمل غير مسؤول».

لم يكن مجلس المدرسة بحاجة إلى القلق بشأن المصاريف القضائية. فقد كان مركز توماس مور للقانون قد تبرع بالترافع عنها، وهذا المركز هو مكتب محاماة كاثوليكي يميني متشدد، يصف نفسه بأنه: «سيف الأشخاص المؤمنين ودرعهم». (وكان ريك سانتوروم ضمن مجلسه الاستشاري). وذكر لي وينريتش أن المحامين من مكتب توماس مور كانوا يقدمون النصائح القانونية لبكنغهام قبل شهور من توجه الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية إلى المحكمة لرفع دعواه.

وعلى الرغم من المساعدة التي قدمها مكتب المحاماة، فإن القضية تتسبب في خسارة مالية فادحة للمقاطعة، وهي مقاطعة تقع في المرتبة الثانية من حيث الفقر في المحافظة. وكان على مدينة دوفر أن تدفع بدل الأجور الفائتة للأشخاص الذين يجلبون للشهادة، وعليها أن تدفع مصاريف المحامين لبعض الشهود مثل براون وزوجته، اللذاين رفضا أن يمثلهما مكتب توماس مور. وتوقع براون أن تبلغ مصاريف مساءلة الشهود قبل المحاكمة وحدها زهاء 30,000 دولار. ثم إذا خسرت بلدية دوفر القضية، فإن قوانين الحريات المدنية تلزمها بدفع (الأتعاب) والمصاريف القانونية التي تكبدها الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. «ولن يكون المبلغ قليلاً»، كما قال ويتلود والكزاك؛ مدير القسم القانوني التابع للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية في ولاية بنسيلفينيا، في أثناء المؤتمر الصحفي في ديسمبر من عام 2004 الذي عقد في عاصمة الولاية.

وقالت كيسي براون: «ستقضي علينا». فمدينة دوفر تعاني أصلاً من الإفلاس. وقد أجبِر مجلس المدرسة للتو على خفض ميزانية المكتبة إلى النصف تقريباً، من 68,000 ألف دولار إلى 38,000 ألف دولار، فضلاً عن إلغاء الزيارات المدرسية الميدانية كافة.

ومع ما تفرضه هذه القضية من تهديد للمال، والدين، والتعليم، فقد تنافرت العلاقات في هذه البلدة الصغيرة التي كانت مترابطة من قبل. ومع اقتراب نهاية عام 2004، توقف أناس عن التحدث إلى بعضهم بعضاً، وشطبت أسماء من قوائم بطاقات أعياد الميلاد. وتقول كيسي عن أعضاء المجلس الآخرين: «لقد كنا أصدقاء»، ولم يبقَ منهم غير واحدة هي آنجي ينغلينغ، التي ما زالت تتحدث إليها. وفي الوقت نفسه، كانت ينغلينغ حانقة على بقية أعضاء المجلس؛ لأنها كانت في البداية في صف بكنغهام، ولكنها غيرت موقفها حين أدركت حجم الخسارة التي ستسببها تلك المواجهة. وزعمت فيما بعد أن بقية أعضاء المجلس تعرضوا لها بالمضايقة والإيذاء، قائلين: إنه لن تكون مسيحية بحق إذا صوتت بما يخالف توجههم. ومع حلول شهر ديسمبر، ادعت ينغلينغ أن زملاءها في المجلس كانوا يسعون إلى إقحام «معتقداتهم ونحلتهم الأصولية المسيحية الضالة» في التعليم الحكومي.

وعلى الرغم من ارتداد ينغلينغ عن صف بكنغهام ورفاقه، فقد أصبح المجلس أكثر صدامية من ذي قبل، وخاصة بعد تأجج القضية. وبعد استقالة براون وزوجته، ومعهما وينريتش، فتح المجال أمام أعضاء المجلس في تعيين أعضاء بديلين عنهم. ومن بين الذين اختيروا: شخص يدعى إدوارد روواند؛ وهو راعي أبرشية إنجيلية محلية؛ وآخر هو إريك ريدل، وهو يدرس أولاده في منزله؛ لأنه يعتقد أن المدارس الحكومية ليست على درجة من الالتزام بالمسيحية، تكفي لحمله على إرسال أولاده إليها.

◆

من العجيب أن مركز العلوم والثقافة لم يؤيد موقف مجلس مدرسة دوفر، وذهب إلى حد إصدار بيان في 14 ديسمبر، 2004، وصف فيه سياسة مدرسة دوفر بأنها (مضللة)، داعياً إلى ضرورة «سحبها وإعادة صياغتها». ونقل البيان على لسان مساعد مدير المركز جوان ويست قوله: إن النقاش في (التصميم الذكي) ينبغي ألا يحظر وألا يفرض، «والواجب عمله هو الكشف الكامل عن الأدلة العلمية المؤيدة لنظرية داروين، وتلك المناقضة لها... وهو الموقف الذي تدعمه الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي».

ويمثل هذا الموقف خروجاً عن الخطة التي رسمتها (إستراتيجية الإسفين) التي جاء فيها إنه: «ينبغي أن نسعى إلى تقديم الدعم القانوني الممكن لأي رد على معارضة دمج تدريس (التصميم الذكي) في مناهج المدارس الحكومية».

فما سبب هذا التغيير؟ بحسب ما يرى السيد نك ماتزكي، الناطق الرسمي باسم المركز الوطني للتعليم العلمي، أنه من الواضح أن مركز الثقافة والعلوم أراد الانتظار في رفع دعوى قضائية حاسمة إلى حين تشكيل محكمة عليا أكثر تعاطفاً تجاههم، وهو ما سيتحقق لهم إذا استطاع بوش تعيين عدد من القضاة الجدد في المحكمة. ويقول ماتزكي: إنه سيكون من الصعب على سياسية دوفر اجتياز أي معركة قضائية

في الوقت الراهن، وإذا أبطلها القضاء، فإن السابقة القضائية الناتجة عن الحكم ستكون انتكاسة للمبشرين بالتصميم الذكي.

ويضيف ماتزكي قائلاً: «تمثل إستراتيجيتهم القائمة الآن بعدم تمرير أي سياسة تقوم على (التصميم الذكي)... وكل ما يريدونه هو سياسة تقول: إن على الطلاب تحليل نقاط القوة والضعف في نظرية النشوء والارتقاء».

ولهذا السبب يدعم مركز الثقافة والعلوم مبادرات شبيهة بتلك التي تبنتها مقاطعة كوب في ولاية جورجيا. إذ قامت المقاطعة بإضافة ملصقات على كتب الأحياء المقررة في منهاج الأحياء في مدارس المقاطعة تقول: «يحتوي هذا الكتاب على معلومات عن (النشوء والارتقاء). والارتقاء يبقى نظرية وليس حقيقة علمية عن أصل الكائنات الحية. وينبغي التعامل مع هذه المعلومات بعقل منفتح، ودراستها بعناية، والنظر إليها نظرة ناقدة».

والفكرة وراء مثل هذا الخطاب هي زعزعة الإيمان بنظرية داروين قبل القيام بتقديم بديل عنها. وكما تذكر (إستراتيجية الإسفين) التي ورد فيها: «لو نظرنا إلى المشهد المادي السائد بوصفه شجرة كبيرة، فإن إستراتيجيتنا يجب أن تعمل عمل (الإسفين)، فالإسفين على صغر حجمه قادر على شق جذع الشجرة إلى قسمين إذا وضع في أضعف نقطة في الجذع». ومن الضروري اجتثاث تلك الشجرة قبل أن تغرس شجرة جديدة مكانها.

يمين ما بعد الحداثة:

ثمة مفارقة كبيرة وعجيبة في الطريقة التي يتعامل بها المحافظون مع (النشوء والارتقاء). فاليمين المسيحي المحافظ ما فتئ يشكو من النسبية ـ وهي الفكرة القائلة: إنه لا يوجد حقيقة مطلقة في هذا الوجود ـ على مر السنين!!. أما الآن، ومع تحديهم نتائج العلم باسم التسامح الثقافي، فإن المحافظين قد أوجدوا مذهباً متطرفاً خاصاً بهم في الفلسفة النقدية المتعمقة. فهم الآن يقلدون المفكرين الفرنسيين، بعد أن كانوا يكيلون لهم أعنف أنواع النقد والتجريح، حين يضعفون فكرة الحقيقة التجريبية، ويرفضون الحقائق التي لا تتناسب مع قناعتهم، بوصفها نتاج أيديولوجية قمعية متعسفة.

وقد صدر عن اليمين المسيحي كم هائل من الكتب المناهضة لتيار ما بعد الحداثة، والنقد العميق، ونظريات النقد الحديث والتحليل النفسي، وهي مدارس فلسفية ترى أن الحقيقة هي وظيفة للقوة (السلطة)، وأن الواقع هو مركب اجتماعي، وهي مدارس ترسخ النسبية وعدم الثبات في القيم والأخلاق الإنسانية. كما ندد المحافظون بفيلسوف ما بعد الحداثة ميتشل فوكولت. وفي كتابها المنشور عام 1996 بعنوان: (قول الحقيقة)، الذي يتضمن هجوماً على التوجه الأكاديمي اليساري، وصفت لين تشيني، زوجة دك تشيني، أعمال فوكولت بأنها: «ليس بأقل من هجوم سافر على الحضارة الغربية. فهو برفضه الواقع المستقل، والحقيقة القابلة للإثبات بسهولة، بل والعقل نفسه - أيضاً - يكون رافضاً للمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الغرب».

ويزخر كتاب السيدة تشيني بأمثلة على الخراب الذي جلبته أفكار ما بعد الحداثة على الحياة الأمريكية. وكتبت تصف كيف أن «مؤلف أحد الكتب المقررة على أشخاص سيتولون مهمة تعليم الأجيال المقبلة، يحث ويشجع الشك في الفكرة القائلة: إن من يعرفون الآن بالهنود الحمر جاؤوا إلى الأمريكيتين عبر مضيق البيرينغ. وكتبت تقول: إن الأساطير الهندية لا تدعم هذه النظرية. كما لاحظت أن التقديرات العلمية ليس لديها (سوى المنطق) لتستدل به».

ولعل من الصعب أن نأتي بقياس أفضل من هذا على حركة (التصميم الذكي). فالمحافظون، مثل خصومهم اليساريين الغارقين بالذنب، يطالبون بالشك الرسمي بفكرة مقبولة لدى الغالبية العظمى من العلماء، لا لشيء سوى تعارضها مع الخرافة الدينية*، ويهاجمون الأشخاص الذين يتمسكون بالمعايير التقليدية على أنهم متعصبون

* اعترف اليمين الثقافي المحافظ في عدد قليل من المناسبات بفضل تيار ما بعد الحداثة عليه. وأبرز مثال على ذلك نجده في مقالة بعنوان: (ثلاث وجهات نظر تخص الخلق والتطور)، وهي منشورة في كتاب طبع عام 1999، وحرره كل من جون مارك رينولدز وجي بي مورلاند وهما باحثان في معهد ديسكفري. وتدافع المقالة عن مذهب «خلق الأرض الفتية» ـ وهو مذهب يقول: إن عمر الكرة الأرضية يقارب ستة آلاف سنة ـ والمقالة من تأليف رينولدز وبول نيلسون. وتبدأ المقالة ـ كما هي حال معظم حجج الأصوليين ـ بالنصوص الحرفية من الكتاب المقدس، وتقوم بالبرهنة على صحتها بطريقة عكسية. وقد كان رينولد ونيلسون على درجة من النزاهة للاعتراف بأن الأدلة التي يقدمها علم الطبيعة تناقض أقوالهم، إلا أنهما لا يقبلان بهيمنة العلم الطبيعي على نصوص الكتاب المقدس. ولا يوجد دليل - بحسب وجهة نظرهما - على أن الكرة الأرضية هي أقدم من ذلك سوى المنطق. وكتب الباحثان: «وإننا في عالم ما بعد الحداثة، لا نرى سبباً لتخلي المسيحيين التقليديين عن أي فكرة تحيرهم».

متحاملون على المسيحية. ولا ينحصر تطبيق هذا النمط على قضية التطور، بل إنه يسم علاقة القوميين المسيحيين كلها بالواقع. ويوجد لدى اليمين حزمة من النظريات شبه العلمية التي تدعم النظرة العالمية للكتاب المقدس. ومن ضمنها العلاج النفسي الإصلاحي (لعلاج) الشذوذ الجنسي؛ والربط الخرافي بين سرطان الثدي والإجهاض؛ ومتلازمة (ما بعد الإجهاض)؛ وهي اعتلال نفساني يظهر حصراً في وعي مناهضي الإجهاض؛ وفاعلية تعليم الامتناع عن ممارسة الجنس، وهي صناعة منزلية رائجة قائمة بذاتها في حقل التضليل العلمي.

وبالطبع، ليست عداوة اليمين كلها للعلوم قائمة على أساس أيديولوجي. فبعضها مستأجر. ومع أن كثيراً من الأصوليين لديهم اعتراضات مذهبية على حركة المحافظة على البيئة، إلا أن امتناع حكومة بوش عن الاعتراف بظاهرة الاحتباس الحراري في الكرة الأرضية هو أكثر ارتباطاً بعلاقاتها بصناعة الطاقة منه بالدين.

ولكن تشويه اليمين للعلم يعمل بنفس الطريقة، سواء كان الحافز في ذلك (الرب) أم المال. لقد أنشأ المحافظون مؤسسات موازية للبحث العلمي تعج بالمجلات ذات الوقع الأكاديمي، وتنشر دراسات تقدم على أنها (أدلة وبراهين) في المناقشات التي تخص السياسات العامة. ففي مجال الاقتصاد اليميني، تقوم مؤسسة معهد المشروع التنافسي ومؤسسة (مواطنون من أجل اقتصاد سليم) بتلفيق واختلاق المقالات، والأبحاث، وتعليقات الخبراء التي تتحدى القوانين والأنظمة التي تنظم البيئة. وفي مجال الثقافة اليمينية، يعد مركز العلوم والثقافة نظيراً للمعهد الطبي للصحة الجنسية الذي يتخذ من تكساس مقراً له، الذي يروج لتعليم الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج، وهناك أيضاً الجمعية الوطنية لأبحاث الشذوذ الجنسي وعلاجه، ويقع في مدينة إنسينو بولاية كاليفورنيا، ويعد الجناح (العلمي) لحركة الشواذ السابقين.

وتجنباً من توجيه التهمة لها بالانحياز الليبرالي، تلجأ وسائل الإعلام الدارجة إلى هذه المؤسسات لتقديم نظرة متوازنة ــ ومن ثم تعطي الانطباع بوجود (جدل علمي) في القضايا محل النقاش، مثل الانحباس الحراري، أو النشوء والارتقاء، في حين أن الحقيقة هي أن هناك اتفاق في الآراء عنها في الأوساط العلمية.

إن مثل هذا الإنصاف الزائف هو عدو الدقة. كما أنه يفشل في وقاية الإعلام من تهم التحيّز؛ لأن تهمة التحيز أصبحت عنصراً رئيساً في النظرة العالمية برمتها للجناح اليميني. ودون هذا التحيز يصبح من المستحيل على القوميين المسيحيين التوفيق بين الحقائق التي تعرض عبر شاشات التلفاز وعلى صفحات الجرائد، وبين لغة الخطاب التي تصدر عن الرئيس بوش وعن آلاف منابر الوعظ في الكنائس. ويسوّغ الاعتقاد بأن قوى التآمر تعمل على إخفاء الحقيقة، وأن أعضاء الحركة هم فقط المحصنون من الخديعة، ورفض الاعتراف بالحقائق الساطعة.

كما أنه يجعل من شبه المستحيل إجراء أي نقاش بنَّاء، كما اتضح لي من حديثي مع المؤمنين بالخلق في مدينة دوفر. إذ كان بعضهم على درجة من الذكاء والبلاغة في القول، وعلى معرفة جيدة بالحجج التي يسوقونها، غير أنه لم يكن هناك أرضية مشتركة نحتكم إليها. وكان بإمكاني أن أستشهد بمقال نشر في مجلة ناشونال جيوغرافيك، أو بأقوال ستيفن جي غولد، ولكن هذه المصادر ليس لها أي قيمة في نظرهم. وهم بدورهم كانوا يستشهدون بأقوال معهد أبحاث الخلق، أو كن هام، أو العهد القديم.

وذات مرة، أكد لي مايكل جونسون؛ أحد الوعاظ في كنيسة معمدانية محلية، عقب اجتماع لمجس المدرسة، أن «نحو ثلث أفضل العلماء يلتزمون بنموذج التصميم الذكي»، مستشهداً بمعهد أبحاث الخلق.

فرددت عليه بأن معظم الخبراء الذين قرأت أبحاثهم وتحدثت إليهم يصرون على أن هناك إجماعاً في الرأي لدى علماء الاتجاه السائد كافة، في دعم القول بالنشوء والارتقاء، إلا أن جونسون يرد بأن هؤلاء الخبراء كذابون. وقال: «هناك كثير من السحب الدخانية المموهة... إنهم يأخذون الأرقام والبيانات، ويحورونها؛ ليغيروا وجه الحقيقة». وعرض علي إرسال قائمة (بأفضل العلماء) عبر البريد الإلكتروني؛ كي يفقهوا في هذه القضية. وقال جونسون: «الدكتور فيليب جونسون - لعلك سمعت به - إنه يدرّس في جامعات رئيسة. وكثير من أقرانه يؤيدون آراءه. ويعدّ مرجعاً في حقل العلوم».

كان مايكل جونسون ودوداً هادئاً، وهو رجل طويل القامة، خفيف الشعر، صغير الشاربين، ويتولى خدمة بضع مئات في كنيسته. أما زوجته واسمها شيرلي، فكانت رقيقة الصوت، تلبس معطفاً أسود ووشاحاً، ولا تضع على وجهها أي طلاء، وتستعمل نظارة ذات إطار رفيع، وهي أقرب بهذه الهيئة إلى كونها صاحبة متجر لبيع الكتب، منها زوجة قس معمداني. وكانت منزعجة بصدق من الآثار الاجتماعية التي عزتها إلى النشوء والارتقاء. وقالت: «إنني أعتقد أن الإبادة الجماعية تأتي من ذلك؛ البقاء للأصلح»، كما أنها أنحت بالمسؤولية عن ظاهرة اليأس الوجودي على الداروينية. وقالت: إنه لو كان النشوء صحيحاً، فلن يكون للحياة أي معنى، وأضافت: «إلى أين يتجه هذا الكون؟ وما هي الغاية منه؟ ليس هناك معايير، ولا موجهات».

ولكن ليس لدى شيرلي ولا مايكل جونسون أي شك في عدم صحة النشوء والارتقاء. فسألتهم: لماذا تعتقدون بأن العلماء يزورون البحث العلمي. فرد جونسون: «إن الحقيقة متى ظهرت، فإنها تكون قوية وذات سلطان ... لذلك كان عليهم أن يطمسوها، وعليهم تيقّن وجود طبقات من الأكاذيب لتغطيتها؛ كي يبقى الخلط والالتباس سيد الموقف، ويستمر تشويه الحقائق».

ما الذي يدفع العلماء إلى ممارسة هذا الدجل والمخاتلة؟ وهنا يجيب جونسون بقياس هذه القضية على قضية أخرى: «إننا نشاهد تطبيق هذا المبدأ مرات كثيرة، كما في مسألة الحرب في العراق». وقال بصوت المتأوه الساخط، ساخراً: «هناك أناس يموتون كل يوم! يا إلهي، علينا أن نخرج من هناك!».

ثم تابع حديثه، بعد أن عاد صوته إلى طبيعته: في الحقيقة «إن حجم الخسائر في العراق هو الأقل في تاريخ الحروب. إننا نواجه حرباً إرهابية عالمية، إنهم يأتون بالناس من كل أصقاع العالم، ويسمونهم الثوار؛ كي يحاربوا جيوش التحالف، وهناك شيء آخر؛ بعض الساسة يحاولون إقناع الناس بأننا نخوض هذه الحرب بمفردنا، وأن هذه الحرب تشن من طرف واحد. كلا. فلدينا ثلاث وثلاثون، أو ثلاث وأربعون دولة تقاتل معنا... لماذا يتلاعب الناس بالأرقام هكذا؟».

الإجابـة التـي انتهى إليهـا هي: «إنهم يريدون التغطية على شـيء مـا،... إنهم لا يحبون فكرة أن أمريكة تشـيّد نظاماً ديمقراطياً هناك، وإن قوتها في العالم هي أكثر من أي وقت مضى».

إنك لا تستطيع أن تجادل مع هذا النوع من المنطق.